

تحليل علمي ونظر المعيارى شامل بحسب ان يكونا أساسا لفكر لغري الحديث المجرد من كل تبعية ثقافية الأستاذ محمد عبدالمولى (تونس)

النظام الرأسمالي يهدف أولا وقبل كل شيء الى الربح الفردي ، ومن قال ربحا فرديا قال انانية وجشما واستغلالا وجميع التناقضات الاجتماعية .

وهذا مثال آخر . لناخذ مثلا مشكل التناسل والازدياد الديمغرافي باعتباره مشكل القرن العشرين ، وما يشيره هذا المشكل من تقاسم حاد ، فسان الاختبارات التونسية ، هي كما اكسد الاخ احمد بن صالح في الملتقى المغربي للديمغرافيا (1) ترمي الى الحد من الازدياد الكمي للسكان (بواسطة اجراءات وقائية) كتعلة لحل مشكلة التنمية الاقتصادية ، وانما تهدف في الحقيقة والواقع ، الى تنظيم العائلة التونسية . وارسائها على قواعد علمية سليمة ، منسجمة مع امكانيات العائلة نفسها ، الكفيلة بتوفير الحاجيات المادية والادبية لاطفالها ، حتى يكون هؤلاء في المستقبل عناصر سكانية حية وفعالة ، في زيادة الانتاج والانتاجية وتنميتها .

تخلف الفكر والواقع :

يمكننا ان نؤكد هنا بان المجتمع التونسي - رغم محاولات التطوير الجريئة - ما زال يعد متخلفا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ، ومتقدما بالنسبة للمجتمعات الاخرى المتخلفة ، واذا حاولنا تحليل هذا التخلف وجدناه يتناول الميدان الاقتصادي ، والاجتماعي ،

المذهب عامة ، هو غير النظرية وغير النظام ، وكثيرا ما يخلط الناس بينهما جميعا . فالنظرية الاقتصادية او الاجتماعية او غيرها . تعكس صورة الفكر في وجهه العلمي المجرد ، عندما يبلغ الفكر مستوى معين من الرقي في تحليل الظواهر الاقتصادية والاجتماعية تحليلا علميا . قصد تفسيرها والكشف عن القوانين الاقتصادية والاجتماعية التي تسيطر الانسان وتتحكم في واقعه ونشاطه .

اما قاموس اكسفورد ، فهو يعرف النظام عامة ، بانه مجموعة من الاشياء متصلة بعضها ببعض بحيث تتكون منها وحدة مركبة .

والنظام الاقتصادي والاجتماعي ، هو مجموعة العناصر القانونية والاجتماعية مثلا : النظام ، الاقتصاد المغلق ، الاقتصاد الاشتراكي والشيوعي ، والنظام التماضدي الذي اخذت به تونس كاختيار اشتراكي وقومي في نفس الوقت ، والان وبعد ان عرفنا النظرية والنظام سيتضح لنا ما هو المذهب ؟ فالمذهب عامة ، هو المنهج الايديولوجي الذي يقود الفكر الى الحكم بافضلية نظام معين او بعدم جدواه كان يقال : بان النظام الاشتراكي التماضدي الذي اختارته تونس ، هو افضل من النظام الرأسمالي ، لان النظام الاول يحقق في نفس الوقت العدالة الاجتماعية ، كما يحقق الديمقراطية الاقتصادية ، والحرية السياسية ، بينما

(1) انظر لنا تحقيقا مفصلا في حلقتين حول : الملتقى المغربي للديمغرافيا . العدد 120 والعدد 121 من مجلة الشعب لمرّة فيفري و 16 منه 1969 . (للمؤلف) .

طاقات المجتمعات الفنية كما يتسبب في كوارث وخسائر لا تدخل تحت مد أو حصر ، فهل عمل المسلمون بمبدأ : « ... وأهدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » ؟

التبعية الثقافية والمذهبية وانحرافاتها

ان المجتمعات العربية والإسلامية ومنها تونس ، بمعطياتها المادية ، والاجتماعية ، والتاريخية ، تملئ علينا طريقة خاصة في التحليل والاستنتاج لا يشاركنا فيها الأجانب ، فلنجرب - ونحن أبناء هذا المجتمع الفني لحما ودما - أن نهضم ما درسناه في الشرق أو الغرب وأن نستقل بوضع طريقة علمية ، وعلم اجتماع تونسي ، عربي ، إسلامي ، له طرائقه وأساليبه لدراسة مجتمعاتنا في جميع الميادين والقطاعات ، وفي تحليل هذا الواقع بما احتوى عليه من قيس غنية خاداة ، الى جانب ما تضمنه من فوضى وتناقض صنعت بعضها عصور الظلام والانحطاط (3) وصنع بعضها الآخر تخلفنا الفكري والمادي طيلة الاحتلال الاستعماري في العصر الحديث ...

ان استعمال المناهج والمذاهب المستوردة في دراسة مجتمعاتنا دون نظر الى طبيعته ، وحاجته ، وروحه ، هو خطأ منهجي في منتهى الخطورة ، انه مصدر سوء التفاهم والالتباس الذي كثيرا ما يقع في استعمال المناهج العلمية في غير ما وضعت له ، والواقع ان المجتمعات الاوربية تختلف طبيعة ونوعا عن مجتمعاتنا العربية والإسلامية كما تختلف من المجتمعات الاخرى الافريقية الاسيوية ، ذلك ان المجتمعات الاوربية الحديثة والمعاصرة خاصة ، قد تأثرت بمؤثرات ، وحفت بها ملابسات ، ما رأينا ولا عاشتها بمجتمعات العالم الثالث ... كالثورات المختلفة التي عصفت وما تزال تعصف بالمجتمعات الاوربية الغربية والشرقية : فمن ثورة فكرية في القرن السابع عشر ، الى ثورة سياسية في القرن الثامن عشر ، الى ثورة صناعية في القرن التاسع عشر الى ثورة اجتماعية لا تزال نعيش لصولها حتى اليوم ، كل

والفكري . في وقت واحد . وهذا يعني ان هذا التخلف المتعدد الجوانب هو نتاج حتمي لتلك الهياكل والتركيبات الاقتصادية والاجتماعية التقليدية والمتجاوزة ، هذا التخلف ذاته في الهياكل والتركيبات يولد التخلف في الفكر ، والعكس صحيح أيضا اي ان التخلف الفكري ، قد بني التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، فالمبني على الفساد فاسد ، كما يقال ، نحن اذن امام وحدة تركيبية تمثل التخلف في اجلي « تماساته » ، ومن الملاحظ ان المجتمعات المختلفة بصفة عامة هي مجتمعات ، التحليل والبحث العلمي فيها متخلفان ايضا .

فما احوجنا اليوم ، الى ان نعمل بكلمات الاسر التي وجهها منذ اكثر من عشرة قرون ، الاسناد القبرواني ابو محمد ابن التبان الى بعض من تعلم عليه قائلا : « خذ من النحو ودع ، وخذ من الشعر واقل ، وخذ من العلم واكثر ، فما احدث كثيرا من النحو الا احمقه ، ولا من الشعر الا اذله ، ولا من العلم الا شربه ... » (1)

فمجتمعات يكثر فيها الانشاد الشعري ، وتكثر فيها المهارات اللغوية ويقل فيها التحليل العلمي هي مجتمعات ، اما ان تكون سائرة ببطء في التنمية ، واما ان تكون كالواقفة ، تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، فهي بهذا الاعتبار كالراكدة ، واخيرا المجتمعات التي تتقدم خطوة الى الامام وتتقهقر خطوات الى الوراء هي بهذا الاعتبار سائرة في طريق النمو في التخلف .

ان ضعف الثقافة التاريخية والعلمية ، وفقدان البحوث والتحقيقات العلمية المتعلقة بجميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية ، والتربوية ، كل ذلك يفسر لنا اسباب انحراف بعض الايديولوجيين وسياسيين العالم الثالث :

ان هؤلاء يتخبطون في فوضى فكرية هي - في رأينا - انعكاس من الفوضى الاجتماعية والاقتصادية (2) اذن نرى ، كيف ان التخلف المادي ينمى التخلف الفكري ويقود الى ما شاء الله من الحلقات المفرغة واللف والدوران . وهذا كله يقود الى اهدار

(1) انظر : معالم الايمان في معرفة اهل القيروان لابن ناجي - الجزء الثالث - ص : 117 (المطبعة العربية التونسية سنة 1320 هـ) .

(2) العبارة الفرنسية قد تترجم اكثر هذه الفكرة : Cahot mental plus cahotique que le cahot social...

(3) انظر دراستنا عن المجتمع التونسي بين القرن الرابع عشر والثامن عشر . والانحطاط الثقافي في العالم الاسلامي ، (بالفرنسية) في مجلة جوهر الاسلام - العدد 8 - جانفي 1969 - ص 15 - 20

هذه الثورات بمذاهبها المختلفة وملابسائها الخاصة جعلت المجتمع الاوربي والغربي تركيزات وانظمة خاصة به .

وبحكم تأثر الباحثين الاوربيين - مدا وجزرا - بكل ما تقدم ذكره ، وبحكم استجابتهم لميولهم الخاصة وعواطفهم الشخصية ، كل ذلك جعلهم على المصوم يقفون غالبا من التاريخ والمجتمع موقفا حياديا باسم الزعم القائل بالموضوعية والحياد العلمي ، فاذا ارادوا دراسة مجتمعا ، رغم جهلهم الظاهر بطبيعته وروحه ولفته ... استعملوا وسائل منهجية قد تكون صالحة لدراسة مجتمعاتهم ، لكنها غير صالحة لدراسة مجتمعا او مجتمعات العالم الثالث من افريقية وآسوية ، فالباحثون الاجانب عموما لا يدركون ولا يفهمون ، وما كان باستطاعتهم ان يدركوا او يفهموا ، طبيعة مجتمعا والتطور التاريخي والاجتماعي لها ، فاذا تهافت باحثونا - وقد تهافتوا ويا للأسف الا من رحم ربك - على هذه الطرق المستوردة غشا وسمينا فانهم يفقدون بذلك موضوع بحثهم ويقعون في خطأ منهجي فاحش .

لا بد ، اذن . من اعادة النظر في جبل دراسات الاوربيين والمستشرقين ومن دار في فلكهم ، ان اكثر هذه الدراسات - لى رابنا ، وخاصة التاريخية منها - اعتمدت على طرق تحليلية نقدية ، لكنها تجريدية وحيادية ، فهي من هذه الزاوية الاخيرة : مضرة جدا وعقيمة جدا . لانها تهمل النظرة المصيرية الشاملة وتحكم على النصوص والوثائق بطريقة تحكمية ساذجة ، فالتشك مثلا ، في جزئية تاريخية ، من خلال النصوص . قد يلقي فترة تاريخية باكملها ، وهذا هو السبب الذي قلص التاريخ الاسلامي باكملة الى قرنين من الزمن تقريبا ، اضعف الى هذا جهل الباحثين الاجانب . بروح الحضارة العربية والاسلامية : مع ما يتبع ذلك من اضعاف مزاجهم الاستعماري او تعصبهم كاثوليين « متفوقين » ، ذي ارجل بيضاء او سوداء ، كاثوليكين كانوا ام بروتستانت ، لانكبين ام ملحدين ، ذوي تنكير لاطيني او جرمانى او انجلوسكسونى او فكيف تكون بعد ذلك ، دراسات هؤلاء الاجانب ، من الناحية العلمية والموضوعية ؟ .

ان عدم ثقتنا بانفسنا وتخلفنا يحجب الينا كل ما هو اجنبي ، الى حد ان يوجد بين ظهرانينا جماعات تعتقد ان الخير كل الخير هو في تقليد اوربا الغربية ، وامريكا السكسونية ، وروسيا السلافية ، والمانيا الجرمانية . اضعف الى ذلك اننا ما زلنا نتابع ذلك

التكوين الثقافي الغريب واللاعلمي حتى اليوم . مثلا : ما راىكم في تكوين رجل من تونس . او من قطر مغربي آخر يدرس اللغة العربية وفقها ، او اللغة العربية وآدابها او الحضارة العربية وتاريخ الادب العربي في فرنسا ... عن طريق اللغة الفرنسية وعلى اساتذة فرنسيين ؟ تخيلوا فرنسا يفادر بلاده الى الولايات المتحدة ليدرس لغته القومية وعقومتها وتاريخ بلادها على يد اساتذة امريكيين ، وعلى الرغم من كل ذلك نعتبر ان لكل قاعدة شواذها : فنحن لا ننكر فضل دراسات بعض الاعلام من المستشرقين الاوربيين المجتهدين امثال ماسينيون (Massignon) وماكسيم رودنسون (M. Rodinson) وجاك بارك (I. Berque) ولاوست (Laoust) وبروكلمن وشاخست (Shacht) اما اننا لا ننكر فضل طرق العمل التقنية المنظمة . التي سلكها ويسلكها رجال العلم في اوربا وامريكا ... خاصة فيما يتعلق بطرق البحث الفنية من تنظيم وتصنيف وتقسيم للعمل ... بعد هذا العرض لا مجال للتهافت على الفث والسمين من دراسات الاوربيين ، والاطمنان العلمي الاعمى لكل ما ينتجه هؤلاء الاجانب ، وانسج على منوال طرق بحثهم التجريدية والسلبية .

فهل يستطيع المفكرون والمؤرخون اليوم في العالم الثالث ان يقفوا هكذا مكتوفي الايدي حياديين امام مشاكل بلادهم ؟ وهل يستطيعون ان يفكثوا من خضم الايديولوجيات التي تعصف بمجتمعاتهم ؟ الى غير ذلك من التساؤلات ...

وبهذه المناسبة يسد لي ان اطرح على جميع المثقفين في هذا البلد السؤال التالي :

اذا كان من اختياراتنا القومية القضاء المبرم على التبعية الثقافية بعد ان قضينا على التبعية السياسية والاستعمار البغيض ، فكيف يمكن التحرر من التبعية الثقافية اذا لم نخطط جديرا ومن الآن لبعوثنا التربوية والتعليمية الفلاحية . والاقتصادية والاجتماعية والحقوقية على الاقل ؟ فاذا بقينا هكذا تابعين مقلدين الى ما لا نهاية للمجتمعات الاجنبية . ومراكز بعوثها ، واذا قرر الاجانب ان يعيدوا النظر جديرا ومن الاساس ، في تنظيم جامعاتهم ومراكز بعوثهم ... فهل سنبقى نحن نرقبهم حتى يدخلوا التحويرات اللازمة على مؤسساتهم ، فنغلق مؤسساتنا وكنياتنا آنذاك ، ام كيف يكون العمل ؟ امام هذا الامر : وبهذه المناسبة فاننا نناشد يالحاح السيد كاتب

الدولة للتربية القومية والاقتصاد الوطني ان يفضي قدما الى الامام ، في تونسنة وتعمير التعليم ، الجامعي ، وتنظيمه وربطه بالحياة القومية واعادة تنظيم مراكز البحث العلمي من حيث وضع البرامج والخطط لتوجيه الباحثين والبحوث ... حتى تعود بالخير على توجيه معركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذا البلد العزيز .

ليس مما يثلج الصدر حقا ، ان نرى تطبيق مشروع ادخال اللغة العربية والفكر الاسلامي كمادة اجبارية في التعليم العالي بجميع فرومه واختصاصاته ، فمن المعلوم . انه وقع الشروع في تطبيق برنامج خاص باللغة العربية والتفكير الاسلامي والحضارة العربية في كافة الكليات والمعاهد التي لم تكن تدرس العربية في كافة الكليات والمعاهد التي لم تكن تدرس القومية للتعاقد . وكلية الحقوق والعلوم الاقتصادية ، وكليات العلوم ، والطب ، والمدرسة القومية العليا للفلاحة ... اذن ان هذه الاجراءات التي اتخذتها كتابة الدولة للتربية القومية تعتبر في رايانا من الامور المساعدة لاندماج الطلبة في الحياة القومية ، حتى لا تنقطع الصلة بين طلاب الجامعة والواقع القومي الحي . هذا الواقع الذي يقوم عليه تراثنا الثقافي والحضاري القديم والحديث نوطنا العزيز . اليس هذا مما يبرز مقومات شخصيتنا القومية ؟ كما يخطر بتعليمنا خطوة موفقة الى الامام ؟

بعد هذا التحليل السريع نقرر بكل وضوح ، اننا لسنا في حاجة الى جل المناهج المستوردة والمذاهب الايديولوجية في حقل العلوم التاريخية والاجتماعية ... فلنقتصر فقط على الاخذ بعلم الغرب والشرق المادي والتكنولوجي والفني ولنترك ايديولوجياته ومذاهبه الفلسفية والعقائدية ، ونزغته الالهادية والوجودية والاستعمارية ... ولنتجنب دراسة تلك النظريات العفواء المفرغة من كل محتوى واقصي والمفعمة بالمواطاة الذاتية ، هنالك مع الاسف افراد اذا قاموا بمحاضرات او بحوث اتخذوا ذلك الاسلوب الرتيب العقيم الذي هو شغوف بوضع وترتيب علامات دورية (Style stéréotypé) وهي اشبه شيء بما يحدث عادة في المكتبات والصيدليات من تبويب للكتب والدوريات والادوية ، واذا حرروا مقالات كانت عبارة عن ثروة نفعية لا اكثر ولا اقل ، فبدلا من ان يبحثوا عن الحقائق من خلال الوقائع والاحداث كان همهم ان يكتبوا في جمل جذابة وقوالب محلات بالزخرفة والبديع وقصدهم من ذلك هو

استجلاب رضى اليافعين والبسطاء ، لقد شاع وانتشر هذا الاسلوب في عصرنا وبلا لاسف ، واغمر وما يزال يلحق الاضرار الجسيمة بالدين لم يهزمهم الوعي العاقل ولا اليقظة المنيفة ، لذلك حتى نشكك من تفكير هذا المتكر ، وتحويل هذا الواقع المتخلف ، نسوق الملاحظات التالية :

— عدم اهمال البحث الجدي والجدري لواقع مجتمعنا المتخلف ، وذلك باستعمال جميع طرائق البحث العلمي الفعالة من تاريخية واجتماعية واقتصادية ... فمن لم يمارس القيام بالبحوث والتحقيقات لجوانب هذا الواقع او بعضها ، لا حق له في الكلام والكتابة .

— مقاطعة الاسلوب الرتيب اللاعلمي الذي المعنا اليه والذي يتجلى في الامور التالية :

— الانسياق في ثروة نفعية وكلام لا ينتهي وخال من كل معنى القصد منه امتهان الناس واحراجهم .

— اطلاق الكلام بدون موضوع ولا هدف .

— عدم الاخلاص في تحمل المسؤولية والاضرار بجميع الناس وذلك بالاعتداء على اشخاصهم ومقدساتهم ... مع اعتبارنا لما سبق . نعتقد ان الخير كل الخير هو في استعمال المنهج العلمي المعيارى ، وهو المنهج الذي يستعين بعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وكل ما وصلت اليه العلوم الطبيعية والتكنولوجية من نتائج ، هذا المنهج استعمل ويستعمل في الدراسات القومية والاشتراكية والشيوعية وهو من اكثر المناهج العلمية انتاجا وايجابية ، فاذا استعملناه نكون قد وضعنا انفسنا في بداية الطريق السوي لتحليل واقعا المتخلف ، واصلاح منهجنا الفكري المتخلف ، وبالتالي كان خطوة ايجابية الى الامام للقضاء على التخلف ومشتقاته وفتحنا موقفا لطرق التنمية الجدريه والرخاء الاقتصادي والاجتماعي ، فليبدأ باحثونا ، من الآن ، في جميع المعلومات وتحليلها واستنتاج تركيبات علمية (Synthèses scientifiques)

بدل اتباع منهجيات لا علمية والتعصب لايدولوجيات اعتباطية ذرائعية مثل بعض الماركسيين والتمركسين المنحرفين وغيرهم من التروتسكيين والفوضويين ، ان هؤلاء بصفنتهم — احبوا ام كرهوا — اعضاء في هذه الامة لحما ودما قد اهلوا الشروط الواقعية لبلادهم وشعبهم ، فاشتراكيتهم تجريدية وخالية من كل محتوى اجتماعي ، اما اشتراكيتهما فهي حل لمشكلة

التخلف الاقتصادي والاجتماعي والفكري وطريق الى النمو والتقدم - هذا الحل الاشتراكي هو حل قومي استوجبه حتمية تاريخية ودفعنا اليه واقعنا المتخلف، ان اشتراكيتنا تركز قبل كل شيء على معطياتنا الدائمة والموضوعية وتستفيد بالدراسة من جميع النظريات والمذاهب الاشتراكية والخبرات الاجنبية على شرط ان تلائم واقعنا وذوقنا وروحنا ، وبذلك تكتسب اشتراكيتنا شكلا ومحتوى واسلوبا قوميا مشحونا بالحياة ويتقبله شعبنا - نحن نؤمن من كسل كياننا ايماننا بالله وبانفسنا وبالعالم . بان الاشتراكية الانسانية هي انجع مذهب يخرجنا من التخلف ويدفعنا الى الامام ويحقق لنا اقتصادا جديدا وسياسة جديدة، وثقافة جديدة ايضا . هذه الاشتراكية تجهل التناقض بين العلم والدين ، ولسنا بحاجة الى سرد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تعرض على محاربة الفساد والظلم بجميع انواعه ، ثم لسنا بحاجة الى الاتيان بشواهد تبرهن على ان ديننا الحنيف هو اقل الاديان السماوية غيبية (1) ، كما كرم الاسلام ابن آدم واستقطبه في جميع نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية ، وما قول الرسول محمد (صلم) « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، وامل لاخراك كأنك تموت غدا » الا مصداقا لما قدمنا.

فنحن الاشتراكيين نتكلم لغة شعبنا ، ونتعلم من خبرات شعبنا العظيم ، حتى نعلمه ونخدم مصالحه واهدافه ، اما اولئك المنحرفون الايديولوجيون ، فيبمدهم من قضية شعبهم قد داسوا المحتوى العلمي والقومي للاشتراكية ، وما ارادوا الا ان يكونوا اميين خياليين ، اما نحن فلا نرى أي تناقض بين الاممية والقومية ، بل بالمعك اذا تعمقنا قليلا وجدنا ان هناك رابطة تاليفية بين القيمتين ، وذلك ما ان تطبق النظرية الاشتراكية في أي بلد حتى تصبح قومية أي محلية ، كان على هؤلاء ان يقتصروا على حفظ نكت وتراتيل من اقوال ماركس وتروتسكي ورجيس دي بري وكاسترو ... معتبرين اياها الاشتراكية ذاتها بل لا بد من وضعها في سياقها التاريخي ، وحيزها المكاني ، حتى يعلموا كم يكون الفرق صلبا بين النظرية والتطبيق العملي لها . ومما ينكر ان هؤلاء بعد اقامتهم في البلاد الاجنبية ، ورجوعهم الى ارض الوطن اخذوا يرددون ما ابتلعوه طائفا في الخارج ونسوا او تناسوا ، ان واجبهم هو دراسة الجديد ، وبمث القديم ، وخلق

الجديد ، انهم اصبحوا وكأنهم عبارة عن « مونوغراف » ضاربين عرض الحائط بمبدأ علمي اساسي في العصر الحديث ، وهو وحدة النظرية والعمل .

النتيجة من هذا الانحراف هي اخطاء كثيرة ارتكبت وترتكب ، وهي تنتشر كانتشار الامراض السارية ، ان هذا التكوين الفكري الغريب ، وهذا التهافت والتقليد الاعمى لكل ما هو غير تونسي قد اتاح لطبقة من الناس هي طبقة اولئك الذين يسمون انفسهم « بالتقدميين » ان تنصرف بحرية كاملة الى اللعب بالافكار والمذاهب المستوردة . لعب المتعطلين ملقية نظرات علوية على الحياة والعالم ، الواقع ان المجلات التي تدور في رؤوس هذه الفئة من الناس ليس لها صلة بحياة الشعب ولا بالحياة عامة ، ان هذه الافكار المستوردة تشبه نباتات المناطق الاجنبية التي تستثبت بواسطة بيوت زجاجية في جو اصطناعي مكيف وليس صلة صلة بين هذا كله والارض التي هي عليها ، ليس صلة صلة بين هذه الافكار وبين الواقع الراشخ الذي تتحرك فوقه جماهير الكائنات الحية ، انهم يظنون انهم يناقشون نصير الجماهير ووظيفتها التي يجب ان تقوم بها سيما الى ما يرسمون لها من غايات واهداف سامية ، ان لعبيهم هذا خطر ، او يمكن ان يصبح خطرا على الناس وعليهم ، ان الذي يسمهم يتكلمون يظن ان جميع المشاكل قد حلت حلا موفقا وان جميع الطرق قد عُبِدَت ولم يبق الا البداية في المسير ، مع انه لا شيء مهما في هذه الحياة يمكن ان يحل بسهولة بل كل مشكل هام يتطلب نفقات باهضة لحله او لمحاولة حله مع ما يحقق به من جهود واطوار.

الاصالة

اننا ونحن نتجه اتجاها اشتراكيا في تونس ، نؤمن بان التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، هو الشكل الافضل للعقلانية الاجتماعية ومثلى آمتا بذلك فرضنا ارادتنا على الحياة والواقع لنصوغهما من جديد حسب اهدافنا وامانياتنا ووصلنا بذلك الى مرحلة النضج التاريخية .

وهل ننسى صرخة المرحوم الطاهر الحداد الخاصة الذي قال فيها : « اذا اردنا ان ندخل البيت ندخل من بابيه ونصل الى غايبتنا بيقين صحيح فليس لنا الا طريق واحد الا وهو : الاعتماد على النفس ؟ »

(1) « ولقد آتينا داوود ... والنا له الحديد ان اعمل سابغات وقدر في السرد » (سورة 34-9-10)

المفكرين العرب نذكر منهم خير الدين التونسي في كتابه : « اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك » .

بعد هذا نرى ان من واجبا اليوم الاعتماد على النفس للقيام بدراسات علمية وفكرية لتاريخنا الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، وبذلك نمطي لاشتراكتنا بعدا تاريخيا يساعدا على وضع الخطط والبرامج السليمة ، ان اعمال دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلادنا يقود حتما الى رداة التحليل للواقع الراهن : فلو استقرنا مثلا التاريخ التونسي والاسلامي لوجدنا جذورا للاشتركية عميقة في الاسلام ، والتراث القومي ، وسلوك عظمائنا ، كما نجد اليوم نفس هذه الجذور في عاداتنا وتقاليدينا ، فكل ما توصلنا اليه في الحاضر هو تكامل لما توفر لنا بالامس ، فتشابه الماضي بالحاضر وتفاعلهما بما فيهما من مميزات وتناقض ادى الى ما نتمتع به اليوم من حضارة ومعرفه ، ثورات الانسان المتتالية في التاريخ ، جاءت الواحدة منها ، متضمنة معطيات الاولى وحاملة بدور المقبلة ، ان في سلوك الرسول (صلم) والخلفاء الراشدين ومنهم عمر بن الخطاب ، وكذلك ابو ذر الغفاري والقرامطة وحسان بن نعمان الفسائي وخير الدين باشا والطاهر الحداد ومحمد علي وحشاد وفخامة الرئيس الحبيب بورقيبة لافضل قدوة للسلوك الاشتراكي والسيرة العادلة .

وفي تراثنا التونسي نذكر سياسة حسان بن نعمان الفسائي : فمثل اكثر من عشرة قرون ركز قواعد الدولة الاسلامية لا في افريقية فحسب بل في افطار المغرب العربي كله ، لقد دافع البربر اول الامر بشدة من ذاتيتهم وكبريائهم بكل قسوة وضراوة واعتبروا ان المسلمين كغيرهم من المحتلين الرومان والوندال والبيزنطيين - وهم قد قاسوا طيلة قرون اضطهاد هؤلاء - وظنوا ان المسلمين الفاتحين اتوا هم ايضا لاضطهادهم ونهبهم وفرض السخرة عليهم ،

ولا يكون اعتمادنا على انفسنا الا اذا اعتقدنا انها عظيمة ، ولا نشعر بعظمة انفسنا الا اذا عرفنا اننا من امة ذات شرف ، وسؤدد وتاريخ مجيد (...) يلزم ان نتقدم ، يلزم ان نعيش حياة لها حق في الحياة (1) .

وهذا مفكرنا ابن خلدون الذي تناول عددا مهما من المسائل الانسانية التي اثارها وبشرها معاصرون كما حاول الاجابة عنها بعد تحليل مسبق للتركيبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية - بشر لأول مرة بما يسمى اليوم بالجدلية التاريخية واكتشف هذا المبدأ الخطير ، قبل كارل ماركس بقرون ، فمن افكار ابن خلدون الاشتراكية ان العمل الانساني هو العنصر الاساسي للثروة (2) . وان الراسمال المستغل يجب ان يعتمد من طريق الكادحين ثم يهاجم الاحتكار ولا سيما الاحتكار في الاقوات ، وينتقد التجار المحتكرين بشدة ويعنفهم بأشجع الصفات ، صابا عليهم جام غضبه ومتوعدهم بالخسران المبين (3) .

ان كتابات ابن خلدون ايها الاخوان هي مهمة جدا لانها تلقي الاضواء على ماضي البلاد العربية والاسلامية التي هي اليوم ضمن البلاد المتخلفة النامية كما يقال ، ففي مقدمته التي سماها ايف لاكوست (4) « بالامجوبة العربية » يبدو ان تحليله لمقريتنا التونسي للشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمغرب العربي في القرون الوسطى على جانب عظيم من الاهمية ، اذ توفق الى وضع جملة من القوانين الاساسية ، تاريخية ، واجتماعية وسياسية .

وبعد هذا اليس من المدهش والمنمشر في وقت واحد ان نرى مفكرا اسلاميا في بداية القرن الخامس عشر ، اي بداية عصر الانحطاط في العالم الاسلامي ، يضع كل هذه التحاليل والبحوث العنمية (5) . وما يذكر ان هنالك من حاول اتباع المنهجية الخلدونية من

1 . جريدة الامة - عدد 32 - في 25 جوان 1922 .

2 . المقدمة - دار الكتاب اللبناني - 1961 - ص : 680 - 681 .

3 . المقدمة - مطبعة البيان العربي - ص : 841 .

4 . Yves Lacoste : « Ibn Khaldoun », Paris, Ed. Maspero 1966 - p. 7-9 .

5 . انظر دراسة من المنهجية الخلدونية بالفرنسية للمؤلف في جوهر الاسلام - ديسمبر 1968 - العدد

7 - ص : 12 - 16 (تونس) .

انظر ايضا مقالة بالفرنسية في صحيفة : L'Action Culturelle

العدد : 1931 - تونس - 9 مارس 1969 - ص : 9 .

مع الاسف ما زالوا متهافنين ، مثقلين بمركبات تقصر
مديدة امام الباحثين الاجانب .
اذا سمحتم فاني اشير الى محاولات الطاهر
الحداد الرائعة :

هذا الرجل لم يدرس لا بالشرق ولا بالغرب ومع
ذلك استطاع ان يطالع ويهضم منهجيات شرقية
وغربية واستعمل في ابحاثه وتحليله الواقعية
الاجتماعية واحداث ما وصلت اليه الابحاث العلمية في
مصره : خط في كتابة العمال التونسيين « تاريخ
النضال الاجتماعي الانساني منذ بدء الخليقة الى عصره
- ومن خلال المقطع التالي تبين انه درس حتى
المذهب الماركسي ، يقول الطاهر الحداد :

« يقوم رجال من العلماء المنقطعين لخدمة
الانسانية يبحثون في تاريخ الانسان ، والحق الطبيعي،
والحياة الاشتراكية ، ووفق نظام اجتماعي تتم به
سعادة الانسان ، فتمخضت هذه الابحاث بعد الدرس
الطويل اجيالا وقرونا من كتاب في الاشتراكية في
اوربا للاستاذ (كارل ماركس) الالماني الذي عد كتابه
غاية احلام الانسانية ومبدأ يقوم على امضاء العمال
المخلصين البارين » (1)

ويضيئ المجال هنا لمرض مقاطع من كتاباته
حول الحركة النقابية في تونس ، والحركة التعاونية ،
والاشتراكية التونسية ، والمرأة في الشريعة
والمجتمع ... وما الى ذلك من المواضيع والمشاكل
التي تلتصق بالواقع التونسي التصاق اللحم بالمظلم -
لقد ناضل من اجل هذه الامور في تونس كما
ناضل من اجلها الحداد بكل ما اوتي من قوة ، بقلمه
ولسانه وقلبه الكبير - فرأى الحداد من الاضطهاد ما
رأى فسحبت منه شهاداته ومؤهلاته ، واتهم بالكفر
والزندقة ، وتظاهر ضده بعض مشايخ الدين مما هيج
الراي العام عليه الذي اثاره صفح المصير ومنابر
الومظ والارشاد ... لكن ما استطاع المحافظون ان
ينالوا من افكار الحداد فبقيت حية كالحديد ، وتحقق
اليوم جانب مهم من مشاريعه واحلامه .

ولا يعني اخيرا الا ان ادمو الى الالتزام بالنقد
والنقد الذاتي ، فهو خير دوع لمجابهة الجهل والفساد
والتخلف ، ولا بد من ان نواصل السير نحو الحق ولو
تعطمت تحت اقدامنا عقد التواكل والخوف من مجابهة
الواقع والحقيقة .

لذلك قابلوا الفاتحين الجدد اول الامر بعين الحذر ،
لكنهم ما لبثوا ان سادهم الدين الجديد الذي قدروا
تعاليمه القائمة على المساواة والعدل ، وبهرتهم حفارة
المسلمين حتى دخلوا فيه افواجا وجماعات واصبحوا
بدورهم : من دعائه المخلصين ، ناهيكم ان الجيش
المغربي الذي يشكل البربر فيه جل قطاعاته الحربية
كان بقيادة بربري هو طارق بن زياد الذي فتح اسبانيا
سنة 711 م .

والجدير بالذكر ان الامير حسان بن نعمان
الفساني الذي كان له الفضل الاكبر في تشجيع وتنشيط
حركة نشر لاسلام والعربية ، قد وزع ساحات
كبيرة من الاراضي على صغار فلاحسي البربر وقد
كانت ملكا للامبراطورية البيزنطية وهكذا ساعدتهم على
الارتزاق من الارض بالزراعة بعد ان كانوا غرباء عن
ارضهم فتمركزوا في هذه الاراضي اسبادا وانشاوا
مدنا وقرى بعد ان كانوا رحلا متهمجين .

البيت هذه السياسة الحسانية من قبيل ما
يسمى اليوم بالاصلاح الزراعي ؟ يمثل هذه السياسة
الواقعية العادلة ، كسب الاسلام قلوب البربر جميعا،
وهكذا انضمت الوحدة الدينية الى الوحدة الاجتماعية،
والاندماج الروحي والمادي بين العناصر الاسلامية
والبربرية اندماجا كليا في ظل العدالة الاجتماعية ،
وحتى لا نضيع في حلم الماضي ، علينا ان « نلتفت
بمراحة وحزم الى معطيات الحاضر وامكانيات
المستقبل » كما اكد لنا الاخ عبد العزيز بن حسن،
علينا اليوم ان نجدد حركتنا الاشتراكية بالنسبة
للحركات والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية
في العصر الدري ، وحتى تربط جبل التاريخ الذي
انقطع بنا طيلة عصور الانحطاط والظلام ، علينا ان
ناخذ بالاساليب العلمية الجديدة والتكنولوجية
الحديثة في حقل دراساتنا المادية والفكرية وربط ذلك
كله بالواقع التونسي ، فليس « اخطر على امة من
ان تلبسها مذهب امة اخرى دون نظر الى طبيعتها
وحاجتها وحجمها وذوقها وروحها » كما قال توفيق
الحكيم .

فالنسبة لدراسة تاريخ بلادنا الاقتصادي
والاجتماعي والثقافي ما زلنا في بداية الطريق ولم يقم
باحثونا حتى الان ببحوث كافية وجدية مكرسة للواقع
الموضوعي ، ولو حاولوا لانوا بالمجب المجاب ، ولكن

(1) كتاب « العمال التونسيون ... » ص : 20 .